

ملاحح الإعجاز النفسى فى القرآن الكرىم

(مجله المدونه - مجمع الفقه الإسلامى - الهند- موافقه على النشر بتاريخ 2017/3/14)

د. عودة عبد الله¹

¹ أستاذ مشارك بقسم أصول الدين / جامعة النجاح الوطنىة / نابلس / فلسطين

ملامح الإعجاز النفسي في القرآن الكريم

ملخص البحث

يقدم هذا البحث دراسة مختصرة ووافية حول أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو الإعجاز النفسي، بغرض الوقوف على أبرز جوانبه وملامحه.

وأظهرت الدراسة أن الإعجاز النفسي في القرآن الكريم يظهر من خلال ثلاثة جوانب، هي:

- تأثير القرآن في النفس الإنسانية سواء كانت مؤمنة أو كافرة.
 - حديث القرآن عن النفس الإنسانية وبيانه لصفاتها.
 - تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس الإنسانية.
- وقد تبين للباحث مدى أهمية هذا الوجه في الدلالة على إعجاز القرآن الكريم، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم.

الكلمات الدالة: الإعجاز، النفس، القرآن، علوم القرآن

The Psychological miracle in the Holy Quran

Abstract

This research presents a concise study on one of the miracles of the Quran, which is the psychological miracle by identifying its most important aspects and features.

The study shows that the psychological miracle in the Quran is recognized through three aspects: The impact of the Holy Quran on the human soul whether it is a believer soul or an infidel soul; The depiction of the human soul and identifying its main features in the Holy Quran, and clarifying matters concerning the metaphysical aspects of human soul by the Quran.

The researcher has clearly found how important is the Psychological aspect in identifying the great miracles of the Quran, and the sincerity of the Prophet.

Key words: miracle, soul, Quran, quran since cinse

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل القرآن الكريم كتاباً معجزاً شاهداً على وجوده وعظمته، أضاء بأنواره قلوباً قاسية ونفوساً ميتة فبعث فيها الحياة، فصار أصحابها قادة البشرية ودعاتها إلى الخير. نحمدك اللهم أن أنزلت القرآن الكريم على سيدنا وحبيبنا محمد عليه الصلاة والسلام، وجعلته من أبلغ الأدلة على نبوته وصدق رسالته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن هدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن النفس البشرية وما يكتنفها من غموض أثارت تساؤلات العديد من العلماء، وجعلتهم يقفون على العديد من جوانبها. واهتم علماء الغرب بدراسة النفس الإنسانية واتخذوا في ذلك مذاهب ووجهات شتى، ولما كانوا منطلقين من أساس غير متين في دراساتهم فقد انحرفوا وحادوا عن جادة الصواب وضلوا الطريق، كما فعل (فرويد) في تفسيره للعقل الباطن فأقامه على الجانب الجنسي الشهواني.

وتوجه علماء المسلمين إلى القرآن الكريم لينظروا ماذا قال عن النفس الإنسانية، فوجدوا فيه النبع الصافي والتحليل الشافي لطبيعة النفس الإنسانية بصورة تجلى فيها الإعجاز القرآني من عدة جوانب.

ولعل أول إطلاع لي على موضوع (الإعجاز النفسي) كان من خلال كتاب أستاذنا الدكتور فضل عباس رحمه الله في أثناء مرحلة البكالوريوس. وكان لأستاذنا الفضل في تعريفنا بالموضوع. ولكن رؤيتي للموضوع بقيت مشوشة وغير واضحة لأننا تعرضنا له بشكل موجز ومختصر. ومن هنا ولما لهذا الموضوع في نظري من الأهمية، فقد رأيت أنه من الواجب علي أن أكشف النقاب عن وجهه، وأزيل ما حوله من غموض، بصورة واضحة، وبأسلوب علمي جاد أبعد ما يكون عن التعصب وضيق الرؤية.

ولعل أهم المشاكل التي واجهني في أثناء إعداد هذا البحث هي تشتت أطراف الموضوع في عدة كتب. مما جعلني أبذل جهداً مضاعفاً لإخراجه بهذه الصورة التي بين أيدينا.

ولقد رأيت أن يشتمل هذا البحث إضافة إلى المقدمة والخاتمة على خمسة مباحث وهي:

- المبحث الأول: معنى الإعجاز النفسي. وأتحدث فيه عن معنى الإعجاز، ومعنى النفس، ثم معنى الإعجاز النفسي.

- المبحث الثاني: القرآن والنفس الإنسانية. ونتحدث فيه عن معاني النفس في القرآن، وأنواعها، ثم مقارنة بين أثر القرآن الكريم وعلم النفس في النفسية الإنسانية.

- المبحث الثالث: علماءنا والإعجاز النفسي. وتحدث فيه عن دور أبرز العلماء قديماً وحديثاً في تناول هذا الموضوع.

- المبحث الرابع: جوانب الإعجاز النفسي في القرآن الكريم. وتحدث فيه عن تأثير القرآن في النفس الإنسانية، وحديثه عنها، وتمزيقه لحواجز غيبها.

- المبحث الخامس: نماذج واقعية للإعجاز النفسي. وتحدث فيه عن نماذج واقعية لأثر القرآن في النفوس، ونماذج من الإعجاز في المعلومات النفسية، ثم نماذج خرق فيها القرآن حواجز غيب النفس. وبعد، فإنني أعترف أن هذا جهد متواضع حاولت فيه أن أخرج هذا البحث بصورة تمكيني وتمكن كل من يطلع عليه من الاستفادة منه.

والله تعالى نسأل أن يكون هذا البحث في ميزان حسناتنا يوم نلقاه, وأن يكون فيه الفائدة المرجوة.

المبحث الأول معنى الإعجاز النفسي

أولاً: معنى الإعجاز

قال ابن منظور: "العجز: نقيض الحزم"².
وذهب الراغب في مفردات القرآن إلى أن العجز "أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر؛ أي مؤخره، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة"³.
وكان قول ابن فارس في (مقاييس اللغة) قولاً جامعاً، حيث ذهب إلى أن العجز يدل على أصلين صحيحين، إذ يقول: "العين والجيم والزاء، أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف والآخر على مؤخر الشيء، فالأول: عجز عن الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز؛ أي ضعيف. وقولهم إن العجز نقيض الحزم فمن هذا. وأما الأصل الآخر: فالعجز: مؤخر الشيء، والجمع أعجاز"⁴.
والمعجزة: واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام⁵.
والمعجزة اصطلاحاً كما يعرفها علماءنا، هي: "أمر يجريه الله على يد النبي، يفوق طاقات البشر ويحرق قوانين الطبيعة وخواص المادة. يتحدى النبي به قومه فلا يقدر أحد على معارضته"⁶.

ثانياً: معنى النفس

عرف ابن منظور (النفس) بأنها: "الروح"⁷. ونقل ابن منظور عن أبي بكر الأنباري قوله: من اللغويين من سوى النفس والروح، فقال: هما شيء واحد، إلا أن النفس مؤنثة والروح مذكرة، قال: وقال غيره: الروح هو الذي به

2 لسان العرب. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. بلا طبعة. بيروت: دار صادر. بلا تاريخ. ج5 ص369.

3 مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. تحقيق: نديم مرعشلي، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1972م)، ص334.

4 معجم مقاييس اللغة. ابن فارس، أبو الحسين أحمد. تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون. ط:2. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. 1391هـ - 1971م. ج4 ص332.

5 لسان العرب. ابن منظور. ج5 ص370.

6 بينات المعجزة الخالدة. عتر، حسن ضياء الدين: الطبعة الأولى، دار النصر، 1395 هـ - 1975م، ص19.

الحياة، والنفس هي التي بها العقل، فإذا نام النائم قبض الله نفسه ولم يقبض روحه، ولا يقبض الروح إلا عند الموت⁸.

والحقيقة أن للنفس في اللغة معان عديدة، فلا نستطيع أن نحصرها بمعنى واحد كالروح مثلاً. وذكر كثير من هذه المعاني ابن منظور في لسان العرب، ومنها: الروح، الدم، الأخ، الإنسان كله، الجسد، العين، الفرج من الكرب⁹.

وليس من غرضنا في هذا البحث أن نخوض في هذه المعاني وتفصيلاتها ويكفي أن نعلم أن الذي يحدد معنى (النفس) هو مفهوم السياق الذي ترد فيه الكلمة.

ثالثاً: معنى الإعجاز النفسي

بعد أن عرفنا معنى (الإعجاز) وشيئاً من معنى (النفس) لا بد لنا أن نحيط بمعنى (الإعجاز النفسي) ومفهومه، وماذا نقصد به؟

عرف الدكتور فضل عباس الإعجاز النفسي في القرآن الكريم بأنه: "ما نلمحه في تلك الآيات وهي تتحدث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم وما يفرحهم وما يحزنهم، وما نجده من بيان لمكونات النفس وخفاياها ودوافعها في آي القرآن الكريم، قد يكون ذلك في القضية القرآنية، وقد يكون ذلك في الحديث عن أعداء المسلمين، وقد يكون ذلك في الدنيا، وقد يكون في الآخرة كذلك"¹⁰.

وعرفه الدكتور صلاح الخالدي بأنه: "حديث القرآن عن النفس الإنسانية أو تأثير القرآن في النفس الإنسانية"¹¹.

بينما يعبر سيد قطب رحمه الله عن (الإعجاز النفسي) في كتابه (التصوير الفني في القرآن) بأنه: "سحر القرآن"¹². ثم يتساءل بعدها عن منبع هذا السحر ليرده إلى صميم النسق القرآني ذاته. لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده¹³.

7 لسان العرب. ابن منظور. ج 6 ص 233.

⁸ المرجع السابق. ج 6 ص 235.

9 المرجع السابق. ج 6 ص 233-240.

10 إعجاز القرآن الكريم. عباس، فضل حسن. (بدون معلومات نشر)، ص 345.

11 البيان في إعجاز القرآن. الخالدي، صلاح. الطبعة الثالثة، عمان-الأردن، دار عمار، 1413هـ - 1992م)، ص 334.

12 التصوير الفني في القرآن. قطب، سيد. بيروت: دار الشروق، بدون تاريخ ورقم طبعة، ص 9.

والحقيقة أنه من خلال دراسة مصطلح (الإعجاز النفسي) يمكن الخروج بتعريف شامل لكل ما سبق، فأقول:
هو كل حديث للقرآن عن النفس الإنسانية وصفاتها ومكوناتها وتمزيقه لحواجز غيبها، وما يتركه هذا الحديث
من أثر عظيم في النفوس.

المبحث الثاني القرآن والنفس الإنسانية

إن موضوع علم النفس في القرآن الكريم لم يأت على شكل نظرية مبوبة وهذا أمر طبيعي في كتاب هدفه الأول هو هداية الناس، ولكن القرآن الكريم تكلم عن النفس الإنسانية بكثرة في أثناء آياته وسوره. وسنحاول هنا أن نعرض لموقف القرآن من النفس الإنسانية من جوانب ثلاثة:

أولاً: معاني النفس في القرآن الكريم

الناظر في الآيات القرآنية التي تحدثت عن النفس الإنسانية، يجد أن ورود النفس في هذه الآيات كان يحمل عدة معاني، وهذه المعاني هي¹⁴:

- (1) النفس بمعنى الذات الإلهية. قال تعالى: ((كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ))¹⁵.
 - (2) النفس بمعنى الإنسان. قال تعالى: ((لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا))¹⁶.
 - (3) النفس بمعنى أصل الخلقة. قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ))¹⁷.
 - (4) النفس: بمعنى الروح. قال تعالى: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا))¹⁸.
 - (5) النفس بمعنى أشخاص بأعيانهم. قال تعالى: ((قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي))¹⁹ أي يوسف عليه السلام.
 - (6) النفس بمعنى القوة الداخلية المؤثرة في الإنسان المنطوية على خباياه العميقة وأسراره الدقيقة.
- وقد كان المفهوم الأكثر وروداً في القرآن الكريم هو (الذات البشرية) أي الإنسان باعتباره وحدة كاملة لا تتجزأ ولا تنفصم. ثم يتلو ذلك من ناحية الإحصاء الكمي ورود لفظ النفس بمعنى القوة المؤثرة في الإنسان²⁰.

14 النفس الإنسانية في القرآن الكريم. سرسين، إبراهيم محمد، ط1، السعودية، دار تحامة، 1401هـ-1981م، ص28-30.

15 الأنعام: 54

16 البقرة: 286

17 الأعراف: 189

18 الزمر: 42.

19 يوسف: 26.

20 النفس الإنسانية في القرآن الكريم. سرسين، ص27-28.

وهذا المعنى الأخير وهو: تلك القوة الداخلية المؤثرة في الإنسان في سلوكه وتفكيره وعلاقاته وعاداته هو المعنى الذي يهمننا وهو الذي عليه مدار بحثنا الآن.

ثانياً: أنواع النفس في القرآن الكريم

تكلم القرآن الكريم في إطار حديثه عن النفس الإنسانية عن ثلاثة نماذج لهذه النفس، وهي:²¹
(1) النفس الأمارة بالسوء. قال تعالى في سورة يوسف: ((وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ))²².
وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة، وهذه هي أدنى الأنواع المعروفة للنفس البشرية وأبعدها عن رحمة الله تعالى ورضوانه، وهي التي أطماعها في الدنيا لا تنتهي، وشهواتها لا تقف عند حد، لأنها موصولة الحبال بالملذات والأهواء، بل هي غارقة فيها حتى الثمالة²³.

(2) النفس اللوامة. قال تعالى في سورة القيامة: ((لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ))²⁴
واللوامة: صيغة مبالغة من اللوم، وهو شدة التعنيف والمؤاخظة، فهي تلوم صاحبها على وقوعه في العمل السيء وتحاسبه على التقصير في العمل الصالح²⁵.

(3) النفس المطمئنة. قال تعالى في سورة الفجر: ((يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّاتِي))²⁶. "المطمئنة يعني: الراضية بثواب الله تعالى، القانعة بعبء الله، الشاكرة لنعمائه تعالى. يقال لها، عند الفراق من الدنيا ارجعي إلى ربك يعني: ارجعي إلى ثواب ربك، إلى ما أعد الله لك في الجنة. ويقال له يوم القيامة راضية مرضية فادخلي في عبادي يعني: مع عبادي الصالحين في الجنة وادخلي جنتي يعني: ادخلي الجنة بلا حساب"²⁷.

21 انظر: المرجع السابق، ص 45. إعجاز القرآن الكريم. الحلوة، مصطفى محمود، (بدون رقم الطبعة ودار النشر، 1944م)، ص 119.

22 يوسف: 53

23 النفس الإنسانية في القرآن الكريم. سرسين، ص 47 - 48.

24 القيامة: 1-2

25 أنوار التنزيل وأسرار التأويل. البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418 هـ، 265/5.

26 الفجر: 27 - 30

27 بحر العلوم. السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، (دون معلومات نشر)، 581/3.

ثالثاً: مقارنة بين أثر القرآن الكريم وعلم النفس في النفسية الإنسانية

عبر الدكتور السيد الجميلي عن ريادة القرآن في هذا المجال بكلمات قليلة حين قال: "ليس هناك أجمل ولا أروع ولا أدق من الفلسفة القرآنية إذا ما قارناها بالفلسفات الأخرى في مفهوم النفس وماهيتها"²⁸. وهذه مقولة صادقة يظهر صدقها حينما نقارن بين الأثر الذي تركه القرآن على النفس الإنسانية، ومدى استجابتها لتعليماته وبين أثر الفلسفة الغربية والقوانين الغربية في المجتمعات الغربية. فهذا هو القرآن ينجح في تغيير العادات المتمكنة ويربي النفوس على عمل الخير وإن كان شاقاً وترك الشر وإن كان مألوفاً. ولكي يتضح لنا ذلك، نقيم موازنة بين موقفين في مشكلة واحدة:

صدر قانون في الدستور الأمريكي بشأن الخمر عام 1918م عن طريق البرلمان، وفي عام 1919م أدخل في الدستور تعديل تحت عنوان التعديل الثامن عشر، وفي السنة نفسها جاء تعديل القرار بالخطر. وقد أعدت الحكومة كل إمكاناتها لتنفيذ قرار المنع: جندت الأساطيل البحرية والبرية والجوية لمنع تهريب الخمر، وسخرت وسائل الإعلام والدعاية لبيان مظاهر أضراره. ويقدر ما أنفقته الدولة في الدعاية وحدها بما يزيد على (60) مليون دولار، وما أصدرته من كتب بلغ عشرة ملايين صفحة. وتحملت نفقات (300) مليون دولار في أربعة عشر عاماً، أعدم في خلالها ثلاثمائة شخص، وسجن (335.532) شخصاً. وبعد جهد جهيد دام خمسة عشر عاماً، اضطرت الحكومة إلى إلغاء القانون سنة 1933م، وأباح الخمر بإباحة مطلقة.

وفي المقابل نرى الاستجابة لقانون التحريم في الدولة الإسلامية، بصورة مغايرة تماماً. ويظهر ذلك من خلال ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: بينما نحن قعود على شرابٍ لنا، ونحن نشرب الخمر جِلا، إذ قمت حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه، وقد نزل تحريم الخمر (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان)²⁹، إلى آخر الآيتين، (فهل أنتم منتهون)، فجيئت إلى أصحابي فقرأها عليهم إلى قوله: (فهل أنتم منتهون). قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضاً وبقي

28 الإعجاز الفكري في القرآن. الجميلي، السيد، (بيروت: دار ابن زيدون، بدون تاريخ ورقم طبعة)، ص47.

بعضٌ في الإِناء، فقال بالإِناء تحت شفته العليا كما يفعل الحِجّام³⁰. ثم صبوا ما في باطيهِتهم³¹، فقالوا: انتهينا ربّنا! انتهينا ربّنا!³².

فهل رأت البشرية مثل هذا انتصاراً على النفس، وسرعة في الاستجابة وقوة في الانقياد للأمر مهما يكن مخالفاً للعادات، مصادماً للشهوات؟³³

30 قال بالإِناء كما يفعل الحِجّام: يعني أماله ونزعه كما يفعل الحِجّام وهو يزرع كأس الحِجّامة.

31 الباطية: إناء كبير من زجاج يملأ به الشراب

32 جامع البيان عن تأويل أي القرآن. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: جميل العطار، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1415 هـ - 1995م)، 47/5.

33 انظر: الإيمان والحياة. القرضاوي، يوسف، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1415 هـ - 1995م، ص 190-194.

المبحث الثالث علمائنا والإعجاز النفسي

لا نريد في هذا المبحث أن نعرض لكل العلماء الذين تكلموا في موضوع "الإعجاز النفسي" وليس ذلك عن تقاعس منا أو تقصير إنما هو مخافة أن يطول البحث وأن تتعدد صفحاته. ولذلك فإنني سأقتصر هنا على عرض لآراء ثلاثة من العلماء هم: الخطابي، ومحمد فريد وجدي، وفضل عباس.

أولاً: الخطابي

كثيرون من علماء البلاغة والتفسير والقرآن في القديم والحديث لاحظوا تأثير القرآن في القلوب، وأثره في النفوس، فاعتبروا ذلك التأثير من وجوه إعجاز القرآن، وعبروا عنه بعبارات متفاوتة. ولكن لعل أول من اعتبر هذا التأثير القرآني وجهاً خاصاً من وجوه الإعجاز هو الإمام أبو سليمان الخطابي الذي توفي سنة 388 هـ³⁴. وقد نص على ذلك في رسالته "بيان إعجاز القرآن" فقال:

"قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، وتقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وقتلها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاته وكفرهم إيماناً"³⁵.

وهو يشير رحمه الله بقوله هذا إلى الجانب الأهم من جوانب الإعجاز النفسي، وهو تأثير القرآن في النفوس وما يتركه من أثر في قلوب المؤمنين وفي قلوب الكافرين، وهذا ما سنتكلم عنه في المبحث المقبل إن شاء الله تعالى.

34 انظر: بينات المعجزة الخالدة. عتر، حسن ضياء الدين، ص388. البيان في إعجاز القرآن. الخالدي، صلاح، ص350. إعجاز القرآن الكريم. عباس، فضل، ص345.

35 ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. الرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثانية، مصر: دار المعارف، 1387هـ - 1968م، ص70.

والخطابي رحمه الله لم يقتصر على هذا الوجه من وجوه الإعجاز ولكنه ذكره مع وجوه أخرى، وأهم هذه الوجوه التي ذكرها الخطابي بلاغة القرآن وبيانه³⁶.

ثانياً: محمد فريد وجدي

إذا كان الخطابي يعطي البلاغة الأهمية الكبرى ويراهما الوجه الأول من وجوه الإعجاز، وما بعدها أمور ثانوية كالإعجاز النفسي، فإن محمد فريد وجدي على النقيض من ذلك تماماً، فإنه يعطي الإعجاز النفسي المرتبة الأولى في وجوه الإعجاز، وذلك مع عدم إغفال الجانب البلاغي للقرآن الكريم. فهو يرى أن القرآن قد بلغ الغاية في البلاغة، إلا أنه يرى أن هذه الناحية ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه، بل ولا هي أكثر نواحي إعجازه. ويقارن في ذلك بين البلاغة وأسلوب القرآن فيقول: "فإن للبلاغة على الشعور الإنساني تسليطاً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاز بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاز والإقبال في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها. وليس هذا شأن القرآن، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً، ولكنه معجز لتسلطه على النفس والمدارك"³⁷.

ثم يرى بعد ذلك أنه لا بد من تعليل لهذا السلطان الذي يملكه القرآن على عقول الآخرين. ثم يبين هذه العلة فيقول: "العلة في نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير تأمل، وهي أن القرآن روح من أمر الله تعالى ... فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها، وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها"³⁸.

ثم يقرر بعد ذلك بصريح القول جهة إعجاز القرآن الكريم من وجهة نظره حين يقول: "نعم إن جهة إعجاز هذا الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك الروحانية العالية التي قلبت شكل العالم، واكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه، وأرغمت لهم معاطس الجبابة والقساورة، ووطأت لهم عروش الأكاسرة والقياصرة، حتى صاروا ملوك الملوك وإخوان الملائكة في مدة لا يصعب عد سنيتها على الأصابع"³⁹. هذا هو رأي محمد فريد وجدي والذي لا بد لنا من أن نقف عنده وقفة بسيطة نحدد فيها موقفنا منه.

36 الإتقان في علوم القرآن. السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1407هـ - 1987م)، 260/2-262.

37 دائرة معارف القرن العشرين. وجدي، محمد فريد: الطبعة الثالثة، بيروت: دار المعرفة، 1971م، 677/7.

38 المرجع السابق 677/7

39 المرجع السابق 677/7

فنحن في حقيقة الأمر نوافق محمد فريد وجدي من جانب ونخالفه من جانب آخر. فإننا نوافق في أن روحانية القرآن وما فيه من حياة وتأثير في النفوس هو الجانب الأعظم والأرقى في هذا الكتاب والذي لا يدانيه فيه شيء من الكلام. ولكننا لا نوافق حين يحكم بأن هذه الروحانية أرقى مرتبة من البلاغة، لأن هذه الروحانية وهذه الحياة في كتاب الله لم تكن بهذا الشكل لو لم يكن هذا الكلام بليغاً. فلا يجوز إذناً أن نفصل بين روحانية القرآن وبلاغته، فهما شيء واحد لا يتجزأ ولا ينفصل، وإذا فقد أحدهما فقد الآخر.

ثالثاً: الدكتور فضل عباس

قبل أن نخوض في نقاش مع الدكتور فضل عباس رحمه الله نقرر أن وجوه الإعجاز النفسي ثلاثة وهي:

1- أثر القرآن في النفوس

2- حديثه عن النفس وصفاتها

3- تمزيقه لحواجز غيب النفس

وهذا ما سنتكلم عنه ونوضحه بشيء من التفصيل في المبحث القادم، ولكننا أحيينا أن تقدم لهذا المبحث بهذه التوطئة، نناقش فيها الدكتور فضل عباس في تفريقه بين الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي ورده أن تكون هذه الوجوه الثلاثة من وجوه الإعجاز النفسي. حيث يرى الدكتور فضل عباس أن هذه الوجوه الثلاثة لا تعد من الإعجاز النفسي، فيقول:

"أما تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس - كما ذكر الشيخ الشعراوي - فهذا في الحقيقة ليس إعجازاً نفسياً وإنما يدخل في وجه آخر وهو إخبار القرآن الكريم عن الغيوب"⁴⁰.

ويرد على الجانب الثاني بقوله: "فليس هذا كذلك من الإعجاز النفسي في شيء، ذلكم لأن هذا حديث عن النفس الإنسانية فيه تصوير وتحذير، حث على الخير وتنفير من الشر"⁴¹.

ثم يتابع رده على الوجه الأخير، فيقول: "بقي مظهر واحد وهو تأثير القرآن في النفس الإنسانية. وهو كذلك لا يسميه العلماء إعجازاً نفسياً بل هو إعجاز روحي"⁴².

40 إعجاز القرآن الكريم. عباس، فضل، ص343.

41 المرجع السابق ص 344.

42 المرجع السابق ص 345.

واعتبر الأستاذ فضل عباس (الإعجاز النفسي) كما ذكرنا سابقاً بأنه: "ما نلمحه في تلك الآيات وهي تتحدث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم وما يفرحهم وما يحزنهم وما نجده من بيان لمكونات النفس وخفاياها، ودوافعها في آي القرآن الكريم"⁴³.

واعتبر تأثير القرآن على النفوس هيبة وحلاوة ورغبة ورهبة هو الإعجاز الروحي.

ولعمري فإن هذه أقوال لا ينبغي أن نسلم بها دون مناقشة جادة. مناقشة موضوعية علمية، بعيدة عن التعصب وضيق الرؤية، تجعلنا نقول برد هذه الأقوال دون أن ينقص ذلك من قدر أستاذنا في شيء، فهو الذي علمنا أسلوب المناقشة والتمحيص لأقوال العلماء. فنقول وبالله التوفيق:

أما رده على ما ذكر الشعراوي⁴⁴ من أن تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس الإنسانية لا يعد إعجازاً نفسياً وإنما يدخل في وجه إخبار القرآن عن الغيوب، فهذا غير متجه لأنه ليس ثمة تناقض بين الأمرين، فهو في الحقيقة إعجاز نفسي من جانب، ومن الجانب الآخر إخبار عن الغيوب، ولا داعي أن نضيق معناه على وجه من الوجوه دون الآخر إذا كان يدخل في الوجهين. أوليس الإعجاز العلمي في حقيقته إعجاز غيبي؟ فلماذا صح أن يكون وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز؟!

وأما قوله بأن حديث القرآن عن النفس الإنسانية ليس من الإعجاز النفسي في شيء، معللاً ذلك بأن هذا مجرد حديث عن النفس الإنسانية فيه تصوير وتحذير حث على الخير وتنفير من الشر. فأى إعجاز أبلغ من وصف النفس الإنسانية وما فيها من خير وشر، ثم توجيه الإنسان بناءً على ذلك؟ أي إعجاز أبلغ من تحليل هذه المشاعر الخفية في الباطن وتجليتها في الظاهر، ومن ثم إرشاد النفس الإنسانية إلى ما يصلح حالها؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى فإننا نستغرب من أستاذنا أن ينفي كون حديث القرآن عن النفس الإنسانية إعجازاً نفسياً بينما نجده في المقابل حين يُعرّف الإعجاز النفسي يُضمن تعريفه هذا الوجه، وهذا واضح في كل كلمة من كلمات تعريفه للإعجاز النفسي⁴⁵.

أما قوله بأن تأثير القرآن في النفس الإنسانية لا يسميه العلماء إعجازاً نفسياً بل هو إعجاز روحي، فهو قول يحتاج إلى مناقشة: فليت أستاذنا ذكر لنا بعض هؤلاء العلماء الذين أشار إليهم ممن يسمونه إعجازاً روحياً، وذلك حتى نقف على حججهم إن كانت لهم حجة. أو لعله ليس هناك من قال بذلك أصلاً⁴⁶.

43 المرجع السابق ص 344.

44 معجزة القرآن الكريم. الشعراوي، متولي، (بيروت، 1986م)، ص.

45 أنظر تعريفه للإعجاز في الصفحة السابقة.

46 خلال قراءتي لموضوع الإعجاز النفسي لم أجد هناك من قال بذلك.

ثم كيف فرق أستاذنا بين الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي؟ وكيف فرق بين النفس والروح؟ وعلى أي أساس كان ذلك؟! وهذا موضوع طويل، لسنا بحاجة إلى أن نخوض فيه، لأنه ربما يحتاج إلى مبحث منفصل. ولكنه يكفينا أن نعلم أن كثيراً من العلماء عرّفوا النفس بالروح، والروح بالنفس⁴⁷.
والمهم أن هذا التأثير الذي يجعله ويتركه القرآن في الباطن هو إعجاز، سواء أسمىناه إعجازاً نفسياً أم إعجازاً روحياً. وإذا عرفنا أن هناك من العلماء من يعرف النفس بالروح أنتفى الخلاف بيننا في المسألة. وإذا عرفنا أنه درج استخدام الموضوع في كتب الإعجاز تحت عنوان (الإعجاز النفسي) كان هو الأولى بالأخذ والاعتبار، وذلك ابتعاداً عن الخلط والتشويش.

47 انظر تعريف ابن منظور للنفس الذي جاء في بداية البحث.

المبحث الرابع جوانب الإعجاز النفسي

يظهر مما سبق أن جوانب الإعجاز النفسي ثلاثة، وهي:

(1) تأثير القرآن في النفس الإنسانية سواء كانت مؤمنة أو كافرة، وما ينتج عن هذا التأثير في النفس من نتائج وثمرات.

(2) حديث القرآن عن النفس الإنسانية وبيانه لصفاتها وتحليله لها وكشفه لخباياها وخفاياها.

(3) تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس الإنسانية.

وهذه الجوانب الثلاثة تشكل العنصر المهم في موضوع هذا البحث، لذا سنتحدث عنها بشيء من الإيضاح والتفصيل.

أولاً: تأثير القرآن في النفس الإنسانية

والحقيقة أن هذا الجانب هو أهم جوانب الإعجاز النفسي في القرآن الكريم، ذلك أن القرآن كما يعبر الرافي: "أتى من وراء النفس لا من وراء اللسان، فجعل من نظمه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية، وأدار المعاني على سنن ووجوه تجعل الألفاظ كأنها مذهب هذه المعاني في النفس، فليس إلا أن تقرأ الآية على العربي أو من هو في حكمه لغة وبلاغة حتى تذهب في نفسه مذهبها"⁴⁸.

إن تأثير القرآن ونفاذه يستحيل أن تتحصن دون القلوب، فإنه لو أنزل على صم الجبال، لفلقها وشققها، بما يودعه فيها من هيبة الله وجلاله. قال تعالى: ((لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمْتَالُ تُضَارِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))⁴⁹. ألا ترى أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره من العوام من الخشوع والسكينة وزيادة الإيمان ما لا يخفى، وذلك كله من دلائل معجزاته وعظيم آياته الدالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم⁵⁰.

فالقرآن إذًا له تأثير عجيب على النفوس، وسلطان قوي على القلوب. فما سر هذا التأثير؟

48 إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافي، مصطفى صادق، الطبعة التاسعة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1391هـ-1973م، ص262.

49 الحشر: 21

50 بنيات المعجزة الخالدة. عتر، حسن ضياء الدين، ص 387

يجيب عن ذلك سيد قطب رحمه الله بكلمات حية مؤثرة فيقول: "ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد.. يبقى ذلك السلطان الذي له على الفطرة متى خَلِّي بينه وبينها لحظة. وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب، وثقل فوقها الركام تنتفض قلوبهم أحياناً، وتتململ قلوبهم أحياناً تحت وطأة هذا السلطان، وهم يستمعون إلى هذا القرآن.

إن الذين يقولون كثيرون.. وقد يقولون كلاماً يحتوي مبادئ ومذاهب وأفكاراً واتجاهات، ولكن هذا القرآن ينفرد في إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول. إنه قاهر غلاب بذلك السلطان الغلاب، ولقد كان كبراء قريش يقولون لأنبأعهم الذين يستخفونهم _ ويقولون لأنفسهم في الحقيقة - (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)⁵¹ .. لما كانوا يجدونه هم في نفوسهم من مس هذا القرآن وإيقاعه الذي لا يقاوم، وما يزال كبراء اليوم يحاولون أن يصرفوا القلوب عن هذا القرآن بما ينزلونه لهم من مكاتيب، غير أن هذا القرآن يظل مع ذلك كله غلاباً.. وما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا قول البشر حتى تتميز وتنفرد بإيقاعها وتستولي على الحس الداخلي للسامعين"⁵².

ويقول سيد رحمه الله في موضع آخر من ظلاله: "إن في هذا القرآن سرّاً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود.. هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره. أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهو هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم أنها هي شيء آخر وراءها غير محدود؟

ذلك سر مودع في كل نص قرآني يشعر به من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة.. بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله"⁵³.

ونكتفي بهذه الإشارات الجميلة من سيد قطب رحمه الله لأنها تغني عما سواها، وهناك في الحقيقة عدة نماذج من الواقع تدل على أثر القرآن في النفوس سنعرض لبعضها في المبحث اللاحق إن شاء الله.

51 فصلت: 26

52 في ظلال القرآن. قطب، سيد: الطبعة الثانية والعشرون، بيروت: دار الشروق، 1414 هـ - 1994م،

53 في ظلال القرآن، قطب، سيد، 3399/6.

ثانياً: حديث القرآن عن النفس الإنسانية

إن في القرآن الكريم معلومات عن النفس الإنسانية كثيرة وشاملة، وربما أكثر مما فيه عن أي علم آخر، وهذه المعلومات كما قلنا لم تكن مبوبة على شكل نظرية نفسية، ولكنها منبثة في ثنايا القرآن الكريم. وهذه المعلومات الصائبة الدقيقة عن النفس الإنسانية تمثل صورة واضحة من صور الإعجاز النفسي. ويقرر هذه الحقيقة الشيخ محمد أبو زهرة، إذ يقول: "إذا اتجه التالي للقرآن إلى دراسة النفس الإنسانية من خلال آياته، فإنه بلا ريب في مكان فسيح للدراسة، يعطي مجموعة من المعلومات الحقيقية المصورة للنفس في إيمانها وفي فجورها، ويمكن أن يجد الإنسان فيها قواعد علمية تكشف عن نوااميس النفوس وما تتأثر به وما تتجه إليه في إيمانها وفي انحرافها، ولنتجه إلى بعض هذه المعاني في كتاب الله تعالى، ولا ندعي أننا نستطيع الإحاطة بها علماً، ولا احصائها ولو بالتقريب، فإن ذلك يحتاج إلى تفرغ لا قبل للأخذ به إلا أن يكون ممن يعنون بدراسته أو من المتخصصين في علم النفس"⁵⁴.

وسيتضح لنا هذا الجانب بشكل أدق عندما نتكلم عن نماذج من الواقع تحدث فيها القرآن الكريم عن النفوس البشرية وصفاتها وأحوالها.

ثالثاً: تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس

وهذا في حقيقته جانب مهم من جوانب الإعجاز النفسي، وكان قد أشار إليه الشيخ الشعراوي في كتابه: (معجزة القرآن الكريم). وأشار الشيخ الشعراوي في كتابه هذا إلى أن القرآن مزق حواجز الغيب بالنسبة للإنسان وتمزيقه لحواجز الغيب مظهر من مظاهر إعجازه ودليل على أنه كلام الله سبحانه، وذكر ثلاثة من حواجز الغيب التي مزقها القرآن وهي⁵⁵:

1- حاجز المكان

2- حاجز الزمان

3- حاجز النفس

54 المعجزة الكبرى (القرآن). أبو زهرة، محمد، (دار الفكر العربي - بدون تاريخ ولا طبعة)،

55 معجزة القرآن الكريم. الشعراوي، ص 99-106.

وحاجز النفس هو الذي يعيننا هنا كجانب من جوانب الإعجاز النفسي. فالقرآن الكريم كما يعبر الشيخ الشعراوي: "دخل إلى داخل النفس البشرية.. وإلى داخل نفوس من؟ إلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهملهم هدم الإسلام.. وقال في كلام متعبد بتلاوته لن يتغير ولا يتبدل. قال: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّوْنَهَا فَيَنْسَ الْمَصِيرُ))⁵⁶. قال ما يدور في أنفس غير المؤمنين.. فهل هناك أكثر من هذا تحدياً لحجاب المكان"⁵⁷.

ويقول الشيخ الشعراوي: "بل إن التحدي ظهر فيما يحرص غير المؤمنين على إخفائه. فالإنسان حين يحرص على إخفاء شيء.. ويكون غير مؤمن.. يأتي إليك فيحلف لك بأن هذا صحيح وهو غير صحيح في نفسه فقط.. ولكن حرصه على أن يخفيه على الناس يجعله يؤكد أنه صحيح بالحلف. ويأتي الله سبحانه وتعالى فيجعل القرآن يمزق نفوس هؤلاء الناس.. ويظهر ما فيها إمعاناً في التحدي، ويقول الله سبحانه وتعالى: ((وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ))⁵⁸.⁵⁹ ولو كان القرآن من عند غير الله لما استطاع أن يصل إلى داخل النفس الإنسانية وأن يمزق حجبتها الداخلية، وأن يجزم بما ستفعله قبل أن تفعله.

وسنورد إضافة لما سبق بعض النماذج الواقعية في المبحث اللاحق توضح لنا كيف خرق القرآن حواجز غيب النفس الإنسانية إن شاء الله.

56 المجادلة: 8.

57 معجزة القرآن الكريم. الشعراوي، ص 101.

58 التوبة: 42

59 معجزة القرآن الكريم. الشعراوي، ص 102.

المبحث الخامس نماذج واقعية للإعجاز النفسي

يتناول هذا المبحث نماذج واقعية تدل على الإعجاز النفسي، وذلك في جوانب الإعجاز النفسي الثلاثة: تأثيره في النفوس، وحديثه عن النفس، وتمزيقه لحواجز غيبها.

أولاً: نماذج واقعية لأثر القرآن في النفوس

النماذج في هذا السياق كثيرة جداً، تناقلتها كتب السيرة والتاريخ، ويكتفي الباحث هنا بذكر ثلاثة نماذج منها:

(1) استماع النفر من قريش لقراءة القرآن

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا.

فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود: فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا الذي حلفت به كذلك. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على

الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقها. قال: فقام عنه الأخنس وتركه⁶⁰.

(2) إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه معروفاً في الجاهلية بقسوته وجبروته وشدته على الداخلين في الإسلام، وكان المسلمون قد يأسوا من إسلامه. فها هي أم عبد الله زوج عامر بن ربيعة تقول: والله، إنه لنتحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشرا علينا، فقالت: فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله، قالت: قلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا، قالت: فجاء عامر من حاجتنا تلك فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر أنفا ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب⁶¹.

هكذا كانت نظرة المسلمين لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم. ترى كيف أسلم رضي الله عنه؟ وما هو هذا الشيء العظيم الذي أثر فيه هذا التأثير؟

يروى رضي الله عنه قصة إسلامه إذ يقول: كنت للإسلام مباعداً وكارهاً ومحارباً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأحرص على شرها وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش على شرها. فأرقت في ليلة من الليالي وخرجت أريد جلسائي في مجلسهم ذلك، فلم أجد أحداً، فقلت: لو أتي جئت فلاناً الخمار لعلي أجد عنده، فجئته فلم أجد، فقلت لو أتي ذهبت إلى الكعبة فطفت بها مسبقاً، فجئت الكعبة لأطوف بها فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي... فقلت حين رأيته لو أتي استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول. ثم قلت في نفسي: لئن دنوت منه لأرو عنه، فابتعدت عنه، وجئت الكعبة من جهة حجر إسماعيل ودخلت تحت ثيابها، وجعلت أمشي رويداً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن،

60 السيرة النبوية. ابن هشام، عبد الملك بن أيوب الحميري المعافري. تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، 1375هـ - 1955م)، 316/1.

61 فضائل الصحابة. ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: وصي الله محمد عباس، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1403 - 1983)، 279/1. صحيح السيرة النبوية. الألباني، محمد ناصر الدين، (عمان - الأردن: المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى)، ص 190.

حتى قمت في قبلته مستقبلة، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة ! ثم سمعت القرآن، رقّ له قلبي فبكيت ودفعني إلى الإسلام، ولم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبعته وأسلمت⁶².

وهناك رواية أخرى لإسلام عمر وهي أنّه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتمع مع أصحابه في بيت عند الصفا، فلقية نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابي الذي فرّق بين أمر قريش، وسفّه أحلامها ولما في دينها فأقتله. فقال له نعيم: أفلا رجعت إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: خنتك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما.

فرجع عمر إلى أخته وزوجها، وكان عندهم خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها سورة طه يقرؤها، فلما سمعوا حسنّ عمر، اختبأ خباب في بعض البيت وخبّأت فاطمة الصحيفة، وكان عمر قد سمع شيئاً من القراءة حين دنا من البيت. فلما دخل قال: ما هذا الذي سمعت؟ قالوا له ما سمعت شيئاً. قال: بلى... وقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بسعيد فقامت إليه فاطمة تدافع عن زوجها فلطمها حتى سال الدم من وجهها وعندئذ قالت فاطمة وزوجها له: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأخته ندم على ما صنع وقال لأخته أعطني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأونها آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ووعدنا أن يردها عليهما إذا قرأها، فلما طمعت أخته في إسلامه، قالت له: يا أخي إنك نجس، على شرك وإتّه لا يمسه إلا المطهرون. فقام عمر واغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها: ((طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى))⁶³ فلما قرأ عمر الآيات المكتوبة في الصحيفة، هدأت ثورته، وذابت حدّته، وسطع أمامه نور المعجزة بما لا يستطيع دفعه وقال لما قرأ ذلك: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه⁶⁴.

"لقد انفعلت نفس عمر بهذا الكلام، كيف لا؟ وهو العربيّ القرشيّ الذي يتذوق العربيّة ويتمايل لسماعها طرباً، وما كان منه إلا أن قال: (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه) وما كان منه إلا أن ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن - لا ليقتله هذه المرة - ولكن ليعلن إسلامه وليضيف إلى التاريخ حادثاً من أهم الحوادث في تاريخ المعجزة القرآنية.

⁶² السيرة النبوية. ابن هشام، 321/1.

طه: 1-6

⁶⁴ السيرة النبوية. ابن هشام، 343/1.

لما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلبه للقرآن، دخلت أنواره قلبه وبددت منه ظلمات الكفر فتأثر بالقرآن وخشع، ورق له قلبه، وبكى من التأثر والخشوع وأعلن إسلامه رضي الله عنه⁶⁵. وهكذا دخل عمر في الإسلام، وكان لآيات من سورة طه هذا الأثر العظيم في نفسه، الذي جعله يترك دينه الذي تمسك به إلى النور والهداية.

(3) أثر القرآن في نفس سيد قطب

هذه حادثة في العصر الحديث يرويها لنا سيد قطب رحمه الله، عن تأثير القرآن في نفسه، يقول: "كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسمعنا صوت قارئ للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم. فانقطع بيننا الحديث، لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القارئ مؤثرا وهو يرتل القرآن ترتيلا حسنا.

وشيئا فشيئا عشت معه فيما يتلوه. عشت مع قلب محمد- صلى الله عليه وسلم- في رحلته إلى الملائكة الأعلى. عشت معه وهو يشهد جبريل- عليه السلام- في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها. ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة. عند سدرة المنتهى. وجنة المأوى. عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي. وتابعته في الإحساس بتهاافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها.. إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض، وأمام الأجنة في بطون الأمهات. وعلم الله يتابعها ويحيط بها.

وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة.. الغيب المحجوب لا يراه إلا الله. والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء. والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد. والحشود الضاحكة والحشود الباكية. وحشود الموتى. وحشود الأحياء. والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى. والنشأة الأخرى. ومصارع الغابرين. والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى! واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهية: "هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى. أَرْزَقَتِ الْأَرْزَاقَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ" ..

65 بحث منشور على الانترنت بعنوان "الإعجاز التأثري للقرآن الكريم"، القضاة، خالد محمد، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن، انظر:

http://www.quran-m.com/firas/arabicold/?page=show_det&id=1842&select_page=9

ثم جاءت الصيحة الأخيرة. واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: "أَقْمِنِ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ؟".

فلما سمعت: "فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا" .. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي. واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي، لم أملك مقاومته. فظل جسمي كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعاً هاتئة، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة! وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليقه قريب. إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة. ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها. ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة.. وذلك سر القرآن⁶⁶.

ثانياً: نماذج من الإعجاز في المعلومات النفسية

فيما يلي بعض النماذج لتقديم القرآن الكريم لنا معلومات نفسية صائبة تدل على أن القرآن هو كلام الله:

(1) الإزدواجية في الخلق الإنساني

أشار القرآن الكريم وهو يحدثنا عن خلق آدم عليه السلام، إلى أن الإنسان خلق من طبيعة مزدوجة، يتمثل فيها عنصران أساسيان، لهما أثر عظيم على نفس الإنسان وتوجهها وسيرها. قال تعالى: ((إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ))⁶⁷. لقد خلق الله الإنسان من الطين ثم نفخ فيه من روحه، فصار إنساناً حياً. والطين يمثل الجانب المادي الأرضي من كيان الإنسان، والروح تمثل الجانب الروحي المعنوي المشرق من كيان الإنسان. وهذه هي الإزدواجية في طبيعته وكيانه.

وينشأ عن هذا الإزدواج: أن بعض النفوس تجنح إلى المادة، وتلتصق بالطين، وتنغمس في الشهوات. ولكن بعض النفوس تتخذ الجانب المادي فيها وسيلة للسمو الروحي، وتحقق إنسانية الإنسان وكرامته في عالم القيم والفضائل والمثل⁶⁸.

66 في ظلال القرآن. قطب، 3420/6-3421.

67 ص: (71-72).

68 دراسات في النفس الإنسانية. قطب، محمد. الطبعة الخامسة، بيروت، دار الشروق، 1981م، ص 41-70.

(2) الإنسان والشهوات بين الدوافع والضوابط

قال تعالى: ((رُئِيَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَيَلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخُرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ * قُلْ أُوْتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لَلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ))⁶⁹.

تمثل هاتان الآيتان خطين متقابلين في النفس الإنسانية هما: الدوافع والضوابط⁷⁰. الدوافع لحياة الإنسان وتحقيق الخلافة في الأرض، وتلبية حاجاته الجسمية والنفسية، إنها الشهوات التي زينت للإنسان والتي جعل الله في فطرته وطبيعته ونفسيته محبتها وطلبها. ولكن هناك دوافع لتلك الضوابط، تضبط نظرة الإنسان لها ومحبتها لها. إن الضوابط في مقابل تلك الدوافع زينة الحياة الدنيا⁷¹.

ثالثاً: نماذج خرق فيها القرآن حواجز غيب النفس

ومن هذه النماذج إضافة لما سبق ذكره:

(1) يقول الله سبحانه إمعاناً في كشفه ما في نفوس أولئك الذين يكذبون بهذا الدين: ((أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَاهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ))⁷².

ففي هذا الموضع خرق القرآن الحاجز في نفوس المنافقين، وأخبر بما سيفعلونه وجزم به، وسمع المنافقون ذلك الإخبار والجزم القرآني ومع ذلك فعلوا وقالوا ما جزم به القرآن. فمن علامات المنافقين أنهم يلحنون بأقوالهم، ومع ذلك جاءوا وخاطبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولحنوا بأقوالهم⁷³.

(2) ومن ذلك ما جزم به القرآن من أنهم سيأتون ويحلفون للرسول عليه السلام وهم كاذبون في حلفهم: ((لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ))⁷⁴.

69 آل عمران: 14-15

70 دراسات في النفس الإنسانية. قطب، محمد، ص 164.

71 البيان في إعجاز القرآن. الخالدي، صلاح، ص 339.

72 محمد: 29-30

73 انظر: معجزة القرآن الكريم. الشعراوي، ص 102. البيان في إعجاز القرآن. الخالدي، ص 341.

وفي قوله (سيحلفون) ما يدل على أن الفعل لم يتم، وقد سمع المنافقون الآية قبل حلفهم، وعجبوا من إخبارها عما سيقومون به، قبل أن يقوموا به، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يتراجعوا عن ذلك، ولم يمنعوا أنفسهم من أن يقولوا ما أعلن الله أنهم سيقولون⁷⁵.

74 التوبة: 42

75 انظر: معجزة القرآن الكريم. الشعراوي، ص102. البيان في إعجاز القرآن. الخالدي، ص 341.

الخاتمة:

- بعد هذه الجولة العطرة في ثنايا موضوع (الإعجاز النفسي في القرآن الكريم), والتنقيب الحثيث في كتب الإعجاز القرآني وغيرها من الكتب العلمية، يمكن الخلوص إلى النتائج الآتية:
1. القرآن الكريم كان خير كتاب علمي تكلم عن النفس الإنسانية. فقد تكلم عنها بوضوح وصفاء، ذاكراً حقائق لا غنى عنها لدارس علم النفس.
 2. يتمثل الإعجاز النفسي في القرآن الكريم في ثلاثة جوانب، هي:
 - تأثير القرآن في النفس
 - حديث القرآن عن النفس وصفاتها
 - تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس
 3. التاريخ والواقع حافلان بالنماذج الحيّة الدالة على الإعجاز النفسي للقرآن الكريم.
 4. إن نظرة علمائنا إلى الإعجاز النفسي ما تزال نظرة عامة وفي بداياتها الأولى، لذلك فإن الموضوع بحاجة إلى من يكتب فيه بشكل متخصص ليوضح كافة جوانبه.
- وليس لنا في نهاية هذا البحث إلا أن نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا العلم النافع وأن يلهمنا الإخلاص في القول والعمل.

قائمة المراجع

1. ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني: فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله محمد عباس، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1403 - 1983).
2. ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة. 6مج. تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون. ط:2. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. 1391هـ - 1971م.
3. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب. 15 مج. بلا طبعة. بيروت: دار صادر. بلا تاريخ.
4. ابن هشام، عبد الملك بن أيوب الحميري المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، 1375هـ - 1955 م).
5. أبو زهرة، محمد: المعجزة الكبرى (القرآن)، (دار الفكر العربي - بدون تاريخ ولا طبعة).
6. الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح السيرة النبوية، (عمان - الأردن: المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى).
7. البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى - 1418 هـ).
8. الجميلي، السيد: الإعجاز الفكري في القرآن، (بيروت: دار ابن زيدون، بدون تاريخ ورقم طبعة).
9. الحلوة، مصطفى محمود: إعجاز القرآن الكريم، (بدون رقم الطبعة ودار النشر، 1944م).
10. الخالدي، صلاح: البيان في إعجاز القرآن، (عمان - الأردن: دار عمار، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1992م).
11. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1972م).

12. الرفاعي، مصطفى صادق: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة التاسعة، 1391هـ-1973م).
13. الرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني: **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، تحقيق: محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، (مصر: دار المعارف، الطبعة الثانية، 1387هـ - 1968م).
14. سرسين، إبراهيم محمد: **النفس الإنسانية في القرآن الكريم**، (السعودية: دار تهامة، الطبعة الأولى 1401هـ-1981م).
15. السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم: **بحر العلوم**، (دون معلومات نشر).
16. السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر: **الإتقان في علوم القرآن**، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1987م).
17. الشعراوي، متولي: **معجزة القرآن الكريم**، (بيروت، 1986م).
18. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **جامع البيان عن تأويل أي القرآن**، تحقيق: جميل العطار، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1415 هـ - 1995م).
19. عباس، فضل حسن: **إعجاز القرآن الكريم**، (بدون معلومات نشر).
20. عتر، حسن ضياء الدين: **بينات المعجزة الخالدة**، (دار النصر، الطبعة الأولى، 1395هـ-1975م).
21. القرضاوي، يوسف: **الإيمان والحياة**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1415 هـ - 1995م).
22. القضاة، خالد محمد: بحث منشور على الانترنت بعنوان "الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم"، **موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن** ، انظر:
http://www.quran-m.com/firas/arabicold/?page=show_det&id=1842&select_page=9
23. قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**، (بيروت: دار الشروق، بدون تاريخ ورقم طبعة).
24. قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، (بيروت: دار الشروق، الطبعة الثانية والعشرون، 1414 هـ - 1994م).

25. قطب، محمد: دراسات في النفس الإنسانية، (بيروت: دار الشروق، الطبعة الخامسة، 1981م).
26. وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، (بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثالثة، 1971م).